بسم الله الرحمن الرحيم

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين

الزكاة وآثارها في تهذيب النفوس وترقية المجتمعات

مقدمـة

لقد كانت الحكومات قبل الإسلام الحنيف في عصور الجاهلية وفي عهود الظلام في أوروبا، تجبي الضرائب والمكوس من الفلاحين والصناع والمحترفين والتجار وغيرهم ممن يكسب رزقه بكد اليمين وعرق الجبين وسهر الليل وتعب النهار لتذهب هذه الأموال الممزوجة بالعرق والدم والدمع إلى الإمبراطور أو الملك أو الأمير أو السلطان في عاصمته الزاهية ينفقها في توطيد عرشه ومظاهر أبهته، والإغراق على من حوله من الحواشي والأنصار والأتباع. فإن فضل فلتوسيع المدينة وتجميلها، واسترضاء أهلها فإن فضل شيء فلأقرب المدن إلى جنابه العالي، وهو في ذلك كله غافل عن تلك القرى الكادحة المتعبة والديار العاملة النائية التي منها جبيت هذه المكوس وأخذت هذه الأموال .

ولهذا كما قال أحد المفكرين الأجانب: " ما كان الفرد في الزمن القديم يعتبر الحكومة تمثله أو تمثل مصلحته العامة، إنما كان على العكس يرى فيها عدوه الأكبر الذي لا همّ له إلا ابتزاز أمواله وامتصاص دمه من غير منفعة محسوسة تأتيه وراء ذلك، ولهذا فقد كان الفرد يعتبر الضريبة عبئا ثقيلا ينبغي التهرب منها ما استطاع إلى ذلك سبيلا ". ويضيف قائلا: " ولقد كانت الشعوب فيما مضى لا تعنى بمالية الحكومة من حيث وارداتها أو مصروفاتها إذ كانوا يعتبرونها مما يخص الملك ومن يلوذ به من الوزراء والعمال. وكانت الحكومات القديمة بدورها لا تهتم إلا بتوفير المال لخزينة الملك، مستعملة في ذلك ما تستطيع من وسائل مشروعة وغير مشروعة. فلم تكن كالحكومات الحديثة توجه قسطا كبيرا من عنايتها إلى العدل في فرض الضريبة وفي توزيع عبئها توزيعا مناسبا بين طبقات الأمة، وإلى إنفاق الواردات العامة فيما ينفع الناس ويزيد الرفاهية في المجتمع.

فلما جاء الإسلام الحنيف، دين العدالة والمساواة، غيَر هذه الأوضاع رأسا على عقب، وفرض على الأغنياء ضريبة لمصلحة الفقراء والمساكين سماها " الزكاة " باعتبارها عبادة تطهر النفوس وتنمي الأرزاق وتعالج المجتمعات من جلّ الأدواء المستعصية وهذه الزكاة توخي في جبايتها وصرفها أسسا من العدل والنظام لا يوجد نظيرها في أي مذهب من المذاهب الحديثة .

وقد ثبت أن الفقراء في الطبقات السفلى من المجتمعات هم شر أدواء المجتمع. فالفقر يحمل الواقعين تحت قهره وسلطانه على إتيان جميع ضروب الشرور للحصول على أخص حاجات الحياة وهو القوت، فالبطون إذا جاعت دفعت أصحابها لاستساغة جميع صنوف الجرائم، وعدت ذلك عملا مشروعا، وفي البيئات التي يشيع فيها الفقر تروج جميع المذاهب المتطرفة، وتستحل جميع الأعمال الوحشية من نهب وغصب واغتيال وغيرها للوصول إلى أغراضها. وقد ذاقت أوروبا من هذه الناحية ولا تزال مناطق أخرى من العالم تذوق ويلات الفقر والمجاعة من الأعمال المخربة للعمران والفتاكة بالأبدان... ابتدأت بالإضرابات البريئة من الشعب وانتهت بالثورات الدموية التي لا تبقي ولا تذر والتي لا زال لهيبها يلقم هنا وهناك حصاد الحضارات العريقة ونتاج المودّة والسلام.

الشيخ الطاهر بدوي